استطاعتهم لكبح التأثير الذي ينتج عن هذه التغييرات. تختلف الاستراتيجيات التي يتبنونها، إلا أنها تميل إجمالاً الى المحافظة على امتيازات الرجال والبنى الأسرية التقليدية.

من الوسائل المستخدمة في هذا المجال مقاومة التغييرات الاجتماعية والحركات النسائية فيما يتعلق بالقانون الاسري في كل من المغرب والجزائر. الوضع في تونس شاذ عن القاعدة: قانون الاحوال الشخصية في تونس واحد من اكثر القوانين مساواة في المنطقة، بل في العالم العربي.

كبح التحويلات الجارية بعدم تشريعها وباللجوء شبه الدائم الى الدين وأشكال من التحكم الإجتماعي والسياسي، تضافرت مع ظروف إقتصادية قاسية لمفاقمة الأزمة التي تعانيها البلدان الثلاثة.

في هذا السياق نشأت الحركة النسائية المغربية الحالية حوالي منتصف الثمانينات من القرن العشرين، وفي البلاد الثلاثة معاً. نشأت هذه الحركة نتيجة : ١) اضطرابات اجتماعية أثرت في وضع النساء الإجتماعي الإقتصادي؛ ٢) رد فعل النساء على التشويش والتناقض في السياسات العامة، وعلى وضعهن الدوني في أسرهن والوظائف السفلى المتاحة لهن؛ و٣) إستثنائهن من مجال إتخاذ القرارات العامة والسياسية.

الوعي المتزايد لإسهام النساء في الاقتصاد والمجتمع، ونشر القيم النسوية على نطاق دولي بواسطة سنة المرأة العالمية (١٩٧٥) وعقد الأمم المتحدة للمرأة (١٩٧٦–١٩٨٥)، هذه العوامل جميعاً شجعت نشأة هذه الحركة على شكل مجموعات منظمة في البلاد الثلاثة.

ولكن هذه النشأة جاءت أيضاً إثر عملية نضج طويل، بدأت قبل الإستقلال بمدة طويلة وقويت تدريجياً لتصبح نتاج التغييرات الإجتماعية والسياسية بامتياز. الحركة النسوية المغربية ممثل جديد ذو مشروع سياسي وإجتماعي واضح وطموح، يهدف الى إسترجاع حقوق النساء وكرامتهن، محدثاً بذلك تغييرات جوهرية في مجتمعات كل منهن. إن نضال النساء من أجل تحررهن رافق التغييرات السياسية والاجتماعية الرئيسية في المنطقة منذ بدء القرن العشرين. وهي شاهد على التغييرات في العقود القليلة الاخيرة، على الرغم من الجمود الظاهر في هذه البلاد الثلاثة.

1. ôjôëàdG äÉcôMh QÉª©àºS ’ G ,AÉºùædG

أحد الأمور المشتركة بين بلاد المغرب الأوسط الثلاثة (الجزائر والمغرب وتونس) إنها ثلاثتها كانت مستعمرات فرنسية. كان إحتلال الجزائر أطولها وأكثرها آلاماً. وقد كان للاستعمار الفرنسي تأثيرات متعددة وبعيدة في البلاد الثلاثة وفي وضع النساء، ولو بدرجات متفاوتة.

á°†jædG ácôM

كما حدث في الشرق الأوسط (ولا سيما في مصر وبلاد الشام) كان الإتصال بالمستعمرين صدمة كان من بين نتائجها إنها جعلت المثقفين المغربيين (الذين تعلموا في أوروبا أو في الشرق الأوسط) يطالبون بتجديد الفكر الإسلامي وبإصلاح المجتمع. وكان وضع النساء جزءاً من النقاش الذي بدأ في الثلاثينات والاربعينات من القرن التاسع عشر. في الواقع أن بعض مفكري النهضة في المغرب بدأوا يطالبون بتعليم البنات، متأثرين في ذلك بنظريات الاصلاح في الشرق الاوسط.

قاوم العلماء هذه النزعة الإصلاحية مدعين أن التعليم الفرنسي في شمالي إفريقيا مناقض للإسلام وأنه سيؤدي إلى فقد الهوية نتيجة التثاقف. إدعوا أيضاً أن هذا التعليم ضد الله والوطن،[١] وكان هذا هو السبب الذي دفع العلماء أمثال بن باديس في الجزائر وعلال الفاسي في المغرب والطاهر حداد في تونس، فضلاً عن وطنيين، الى تأسيس تعليم إسلامي حر. لم يكن أمامهم إلا أن يرسلوا بناتهم إلى هذه المدارس الحرة ليكونوا مثلاً يحتذى به؛ ولكن كان على هذا التعليم أن يجري في إطار عربي إسلامي، وأن لا يضلل البنات فيبتعدن عن وظيفتهن «الطبيعية»، أي الإنجاب والعناية بأسرهن.

بما أن الشباب المتعلمين المنتمين الى البرجوازية والطبقات المدينية الغنية كانوا قد خبروا رؤيا مغايرة للعالم، أخذوا يطالبون بحق البنات –زوجاتهم في المستقبل[٢]– بالتعليم. وقد أجبرت سوق الزواج الأهل على التأقلم مع هذا الوضع الجديد، وبدأوا يعتبرون جهل النساء خطراً بما أن المثقفين أخذوا يتزوجون نساء أجنبيات متعلمات.

وما قضى على آخر مقاومة لتعليم البنات كان تعبئة بعض العلماء لتعليمهن، وتبني الحركات الوطنية ذلك في البلاد الثلاثة، فضلاً عن ضغوط المثقفين. قبل الإستقلال بحقبة طويلة راهنت البلاد الثلاثة على التعليم كوسيلة لتسريع التحرر الوطني والتنمية الإقتصادية والإجتماعية. أعطيت الأولوية لتعليم الصبيان، إلا أن الحركات الوطنية الثلاث تبنت تعليم البنات، على الرغم من بعض المقاومة (لا سيما في المغرب).[٣]

...QƒcòdG ìÓºU ’ G ájOhó fi

يعلمنا تاريخ بلاد المغرب أن النساء إخترن هويتهن الجماعية ليحاربن الاستعمار على الرغم من أنهن عانين المزيد من التحكم بحرية حركتهن. كن محجبات ومخفيات عن عيون المستعمرين المسيحيين الذين نظروا الى «المرأة المسلمة» على انها موضوع فضول وتخيّل، ولكن النساء المغربيات لعبن أدواراً مباشرة وغير مباشرة في نضال بلادهن للإستقلال. كان عليهن أن يعشن الصراع بين هوية الشعب المستعمَر وهوية النساء الخاضعات، على أمل ان يفيدهن الاستقلال بقدر ما سيفيد الرجال.

ولكن سرعان ما ظهرت محدودية تعهّد الإصلاحيين تعليم البنات. في الواقع، كان على التعليم، حسب رأيهم، أن يعطي الأولوية لدور النساء العائلي، وهدف التعليم الأول أن يحسن هذا الدور. ولكن، على الرغم من أن تعليم النساء كان محدوداً عددياً ونوعياً بدأ يعطي نتائجه خارج الحدود الضيقة التي وضعها له الإصلاحيون الأبوين. أرادت نساء الخاصة المدينية أن يُسمعن أصواتهن وأن يخرجن من العزلة الأبوية الحامية التي أراد الإصلاحيون الذكوريون أن يبقين فيها. هذه الأصوات النسائية المنشقة كانت أصوات نساء لهن وسائل الثقافة عينها التي كانت للرجال، ولكنهن وعين ظروف النساء في بلادهن، لأنهن نساء. في أول الأمر كانت هذه الأصوات معزولة إلا أنها اكتسبت المزيد من الثقة بعد أن استعانت بوسائل جديدة، ولا سيما بعد أن كانت النساء قد أسهمت بشكل فعال في الحركات القومية لتحرير بلادهن.

قسم النساء في حزب الاستقلال في المغرب (أهم الأحزاب المنادية بالإستقلال)، وإتحاد النساء المغربيات (الذي أسسه الحزب الشيوعي عام ١٩٤٤)، وجمعية أخوات الصفا المنتمية الى حزب الديموقراطية والإستقلال (١٩٤٦) كانت أولى هيئات المنظمات النسائية في تلك الحقبة التي ميزتها المطالبة بالاستقلال. كانت أولوية هذه المنظمات كلها النضال الوطني، او الإحسان. الا إن أخوات الصفا شذت عن القاعدة إذ أثارت مشكلات تتعلق بقانون الأحوال الشخصية مثل الزواج المبكر والمهر والطلاق وتعدد الزوجات.
على غرار المغرب انشأ الحزب الشيوعي في الجزائر إتحاد النساء الجزائريات في ١٩٤٣، وكان معظم أعضائه من الاوروبيات. وإذ اشتد النضال للإستقلال أخذت الاحزاب الوطنية تشجع النساء على الإنضمام إلى صفوفها. من أجل ذلك تأسست خلايا توعية هدفها الوحيد تعبئة النساء للنضال ضد الإستعمار. أعجبت هذه التعبئة النساء لأنها أشعرتهن أن مستقبل وطنهن في أيديهن، لا أن قضية وضعهن لم تُثر اطلاقاً.

بفضل الحركة الإصلاحية القوية التي قادها الطاهر حداد[٤] والشيخ بن عشور في تونس أثير وضع النساء باكراً جداً (في ثلاثينات القرن العشرين) كشرط ضروري لتحديث البلد. المحاولات الأولى لتنظيم النساء المنتميات إلى البرجوازية التونسية المدينية تجلت في القيام بأعمال خيرية لمساعدة النساء الفقيرات. إلا أن هذه الحركة تحولت سريعاً تحت لواء حزب الدستور الجديد (الذي تأسس ١٩٣٤) إلى النضال ضد المستعمر الفرنسي. وعلى غرار ما حصل في البلدين الآخرين، أسس الحزب الشيوعي التونسي منظمتين نسائيتين منتميتين إليه (إتحاد النساء في تونس وإتحاد الشابات التونسيات في ١٩٤٤). كذلك انضمت النساء إلى الإتحاد العام للعمال التونسيين وإلى غيره من المجموعات السياسية.

خلال هذه الفترة أعطيت الأولوية في كل بلاد المغرب إلى قضايا متعلقة بالإتجاهات الإيديولوجية والسياسية الخاصة بالمنظمات المختلفة. لم يكن لقضية حقوق النساء مكان إلا كقضية سياسية بين الوطنيين والمستعمرين، وبين المحافظين والإصلاحيين. فتمّت تعبئة النساء حول هذه القضايا من غير أن تتاح لهن فرصة التعبير عن مطاليبهن وطموحاتهن الخاصة بهن.

QÉª©àºS ’ Gh ájƒHG

وصول المستعمرين الغربيين إلى المغرب بأيديولوجيا وممارسات وخطاب يدعي «إنني اجلب للشعب المحلي الحضارة والتطور »، خلق في الشعب توتراً متعلقاً بهويتهم وتبلور حول النساء والعائلة والدين. وكان الدين أقوى الآليات لمناهضة المستعمرين وقيمهم؛ إن هذه العملية المعروفة والتي حلّلت كثيراً وضعت العربيات والمسلمات على تقاطع بين هويتين: هوية المجتمع المظلوم وهوية النساء الخاضعات.

كذلك إحتل التراث الكولونيالي مكانة هامة جداً في تصوير الإسلام الذي كان بمثابة قوة لمقاومة الإحتلال والإمتصاص، والذي استخدمه الوطنيون في البلاد المستعمَرة كسلاح تعبئة.

خلال سنوات «لبس الإستعمار قناع التقدم العالمي لكي يخضع الشعوب، خالطاً بذلك بين الحداثة والاستعمار والسيطرة.»[٥] وكما يلاحظ يوسف بانغورا "...بالنسبة للعديد من بلاد العالم الثالث يقتضي التوصل إلى الحداثة التخلص من حدود الاثنية، تبني الهوية العلمانية الخاصة بالدول القومية، تطوير نظرة عقلانية وعلمية الى التنمية، ومعاملة الافراد ككائنات قائمة بذاتها.»[٦]

في الجزائراستخدم المستعمرون ومن كان ضدهم وضع النساء كورقة سياسية. في ١٩٥٨ ناشدت فرنسا النساء حرق حجابهن في إحدى الساحات العامة المهمة في الجزائر فيما يهتفن «الجزائر الفرنسية». ساعد ذلك على «تزوير القضية لإن نساء